

9

قصص المبشرون بالجنة

سلوى العناني

رجل من
أهل الجنة



رجل من أهل الجنة

(سعد بن أبي وقاص)

بسم الله الرحمن الرحيم

{وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ
فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ
أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ}

[لقمان : 15]

لهذه الآية الكريمة حكاية .. فقد نزلت في موقف إنساني
نادر .. قد يكون الوحيد في تاريخ البشرية ...
فما هي هذه الحكاية ؟ .. ومن هو بطلها ؟

بطل الحكاية صحابيٌ جليلٌ من صحابة الرسول عليه
السلام - هو (سعد بن مالك الزهري) والمعروف باسم
(سعد ابن أبي وقاص) الذي تحدث عن نفسه فقال :

"أتى علىَّ يومٌ ، وإنِّي لثُلثُ الإسلام" ..

وهذا يعنى أنه كان ثالثَ أول ثلاثة رجال دخلوا الإسلام
فى الأيام الأولى للرسالة .. وكان هذا على يدى (أبى بكر
بن قحافة) (الصديق) الذى أقنع أصحابه بالدخول فى
الدين الجديد وهم : عثمان بن عفان ، والزبير بن العوام ،
وعبد الرحمن بن عوف ، وطلحة بن عبيد الله ..

يومها بسط (سعد) يمينه إلى رسول الله مباعا .. ولم يكن
للمسلمين مكان للقاء أو للاجتماع ، ولم يكن قد نزل من
الوحى الكثير .. لكن دعوة التوحيد لمست أوتار الفتى ابن
السبعة عشر ربيعا فلم يفكر كثيرا .. فالنور ساطع والحقيقة
جلية والحق صريح .. ولم لا يسعى إلى مصدر الفلاح؟
ولم لا يضع يله فى اليد التى امتدت إليه لتصعبه إلى
طريق الهداية ؟ .. ولم لا يشارك هؤلاء الذين هدى الله فى
حمل راية الدعوة ؟

لكن هل يرضى أهله عما أقدم عليه ؟ .. هل يوافقونه
على أن يترك دين آبائهم وأجدادهم وأن يتبرأ من عبادة هذه
الأصنام التى تحيط بالكعبة ، وهل يتعد هؤلاء الزعماء

والأغنياء وصفوة قريش .. وينضم إلى قافلة الفقراء التي
يقودها الفقير اليتيم (محمد بن عبد الله) ???

وتكون صدمة أمه فيه كبيرة .. فهذا فتاها (سعد) ينتظره
مجد و ثراء ، فلذا به يهجر هذا كله ويعتنق ديناً جديداً ..

وتمضى أيام الحوار بين سعد وأمه .. ومعها ليالى التهديد
والوعيد ..

لكن الإيمان القوى لم ينهزم أمام الوعد .. ولا الوعيد ،
ولم تجد الأم طريقاً واحداً تهزم به إصرار ابنها .. فقد
أعلنت صومها عن الطعام والشراب حتى يرجع ابنها عما
هو فيه ، ويرتد إلى دين آبائه وأجداده ..

واستمرت الأم فى إصرارها حتى تدهورت صحتها
وأشرفت على الموت ..

فلجتمع أهل (سعد) وذهبوا إليه يسألونه أن يلقي على
أمه نظرة الوداع وقد أيقنوا أن صورة الأم على هذه الحال
ستعيد للفتى (صوابه) فيرتد عن دينه لينقذ أمه ..

وذهب سعدٌ ..

ورغم قسوة الموقف .. فإن صوت الإيمان القوى كان
يهتف في عقله وقلبه فيعطيه القوة على تحمل ما هو فيه ..
اقترب سعدٌ من أمه .. أمسك بكفها الهزيلة الباردة ..
ارتعش صوته قليلاً ، فقد تحركت مشاعره تجاهها .. ثم قال :
" تعلمين والله يا أمّه .. لو كانت لك مائة نفسٍ ،
فخرجت نفساً نفساً ما تركت ديني هذا لشيء .

فكُلّي - إن شئت - أو لا تأكلِي " ..

وأمام هذا الإصرارِ القويّ عدلت الأمُّ عن قرارها
وأقبلت على طعامها وشرابها ، فقد اكتشفت أن (إضرابها
عن الطعام) لن يثنى ولدها (سعد) عن قراره .

لقد تمكن الإيمان منه وأصبح عنده أغلى من كل ما في
الحياة ، وتحيّة لهذا الموقف نزل الوحي الكريم يقول :

{ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا

تُطِعُهُمَا } ..

جلس النبي يوماً مع أصحابه .. فإذا به يتطلع إلى الأفق
وكأنه يسمع همسا .. ثم نظر إلى أصحابه وقال لهم :
"يتطلع عليكم الآن رجلٌ هو من أهل الجنة" .

ويلتفت الصحابةُ في كل اتجاه .. وما هي إلا دقائق حتى
أهلّ (سعدُ بن أبي وقاص) عليهم .. فعرفوا أنه (مُبَشِّرٌ
بلجنة بإذن الله) .

يُروى عن رسول الله عليه السلام ، أنه كان إذا أتى سعدٌ
إلى مجلس وهو بين أصحابه داعب (سعدًا) قائلاً ..
(هذا خالي .. فليربي امرؤ خاله) .

نعم .. كان سعدُ بنُ أبي وقاص في مكانة الخال للنبي
الكريم فجده أهيب بن مناف هو عمُ السيلّةِ آمنة بنت
وهب أم رسول الله .

كان سعدُ بن أبي وقاص هو أولَ من رمى سهمًا في
سبيلِ الله ، فقد خرج على رأس سريةٍ من سرايا التي
بعث بها النبيُّ بعد الهجرة إلى المدينة للثأر من قريش

باعتراض قوافلها .. وعندما التقى المسلمون بإحدى هذه القوافل .. رمى سعدُ سهمًا من قوسه (فكان أولَ من رمى في الإسلام) ..

أما أنه الوحيدُ الذي افتداه الرسول بأبويه ، فقد كان في غزوة (أحد) وقد انقلب ميزان الحرب على المسلمين بعد أن كانوا قد انتصروا ، لكن مخالفة بعضهم لأوامر النبي جعلت (قريشًا) تنتهز الفرصة فتعود لتثأر لهزيمتها .. وساد المهرج في صفوف المسلمين ، وأشاع البعض أن النبي قد قُتل ..

والتفت كوكبةٌ من خيرة الصحابة حول الرسول تدافع عنه وعن دينها منهم (سعد بن أبي وقاص) يقف إلى جانب النبي يرمى بالنبل وكان الرسول يناوله ويقول : "ارم .. فداك أبي وأمي" ..

ولم تكن هذه فقط هي بطولات (ابن أبي وقاص) الحربية .. فقد عرف عنه الشجاعةُ والقدرةُ القتاليةُ الفذةُ

طيلة حياته ، يدفعه إلى ذلك يقينه الصلب ، وإخلاصه
العميق وإيمانه الصادق بدينه وبرسوله ..

كان بطلا في (بدر) .. وفي (أحد) .. وفي كل الغزوات
الأخرى ، فعرف الصحابة عنه هذه القدرة القتالية
الفريدة ..

كان يوما حاسما في تاريخ الإسلام .. هذا اليوم الذي
اجتمع فيه رأى أصحاب (الشورى) على ألا يقود الخليفة
(عمر بن الخطاب) الحملة الكبرى ضد (الفرس) وكان
الخليفة قد أخذ قراره هذا بعد أن شعر بخطورة الهجمات
المسلحة المتكررة من جانب الفرس على المسلمين ، كما
تضاعف عنده إحساس الخطر بعد أن تراجع بعض أهل
العراق عن عهودهم ومواثيقهم مع خليفة المسلمين في
المدينة ..

ونزل الخليفة عمر بن الخطاب عن قراره أمام إصرار
(الجماعة) ثم سألهم عما يختارون لهذه المهمة .. وساد

صمتٌ طويلٌ .. المسئوليةُ كبيرةٌ ولا بد أن يكون الاختيار
محسوباً ..

وجاء صوتُ الصحابي (عبد الرحمن بن عوف) ليقطع
هذا الصمتَ ويطرحَ اسمَ القائد الذي اختاره ..
"الأسد في برائه" ..

واختلطت الهمهمات تحمل سؤالاً واحداً ..
من هو المقصودُ بهذا الاسم "الأسد في برائه" ..
قل عبدُ الرحمن بنُ عوفٍ (سعد بن مالك الزهري) .
وصاح الجميعُ في صوت واحدٍ .. نعم هو لها . (سعد بن
أبي وقاص) .

إن جيشَ المسلمين لا يزيد على ثلاثين ألف مقاتل
مسلحين بسلاح بسيط .. مجرد سيوف ورماح ..
بينما كان جيشُ الفرس يزيد عدده على مائة ألف من
المقاتلين المدربين والمزودين بأسلحة ومعدات ليس للعرب
معرفةٌ بها ، كان على رأسهم القائد المشهود له (رستم) .

فمن هو القائد العربى المسلم الذى يتحمل مسئولية
هذه المواجهة؟؟ ..

إنه "الأسد فى براهنه" .. إنه (سعد بن أبى وقاص) ..
الذى خرج على رأس جيش المسلمين متوجها إلى لقاء
الفرس عند (القادسية) ..

فى كل يوم كان رسول (خليفة رسول الله) يصل إلى سعد
حاملًا النصيحَ والتوجيه ..

- "يا سعد بن وهيب .. لا يغرنك من الله أن قيل : خال
رسول الله وصاحبه ، فإن الله ليس بينه وبين أحدٍ نسبٌ إلا
بطاعته .. والناسُ شريفُهُم ووضيعُهُم فى ذات الله سواء ..
الله ربهم وهم عباده .. يتفاضلون بالعافية ويدركون ما عند
الله بالطاعة .. الأمر الذى رأيت رسول الله عليه السلام منذ
بعث إلى أن فارقنا عليه ، فالزمه ، فإنه الأمر ..

اكتب إلى جميع أحوالكم .. وكيف تنزلون .. وأين يكون
عدوكم منكم .. واجعلنى كأنى أنظر إليكم" ..

ويرسل سعد إلى الخليفة (عمر) أن (رستم) قائد الفرس
قد جمع خيوله تتقدمها الفيلة ، ووقف قبالة جيش
المسلمين . فيرد (عمر) : (لا يكربنك ما تسمع منهم ، ولا
ما يأتونك به ، واستعن بالله وتوكل عليه ، وابعث إليه
رجالا من أهل النظر والرأى والجلد يدعونه إلى الله ..) .

ويذهب وفد المسلمين إلى معسكر الفرس ويلتقى
(برستم) ثم يعود بإجابة قائد الفرس .. إنها الحرب . يا
الله .. إنها اللحظة التي يتمناها (الأسد في برائته) أن
ينطلق بسيفه (بعون من الله) ليقضى على (عبادة النار) ..
إنها فرصته كي يعتلى صهوة جواده ويصول ويجول وسط
هؤلاء المتكبرين ، ويعلى كلمة الحق وينصر شعار (الله
أكبر) ..

لكن .. لكنه المرض اللعين يداهم الفارس في يوم كان
يراه يوم عرسه فيعوق نشاطه ويحد من حركته ..

لا بد أنها حكمة إلهية ألا يشارك (سعد بن أبي وقاص)

فى أهم المواقف الحربية فى التاريخ الإسلامى رغم أنه كان
قائد الجيش ..

وتدور رضى الحرب ، وترجح كفة المسلمين رغم أن كفة
العدو كانت هى الأرجح عدداً وعدة .. لكن الإيمان الراسخ
والاستهانة بالروح والنفس جعل فى ساعد كل مسلم
كتيبة محاربين ..

ويقتل قائد الفرس (رستم) الذى كان أسطورة قومه ..
ويمضى قرابة عام على نصر المسلمين فى موقعة القادسية ..
والفرس يحاولون مرة أخرى جمع فلولهم وتنظيم صفوفهم
عليهم يقدرّون على مواجهة هذا الطوفان الهادر القادم من
الجزيرة العربية .. فيتحصنون بعاصمتهم (نهادند) ..

ويقرر (سعد) استكمال رسالته وهدفه الأول وهو (إطفاء
النار المعبودة) وإعلاء كلمة الله الحق ..

ويقف نهر (دجلة) مانعاً مائياً ضخماً لم يعرف العرب
التعامل معه من قبل ..

هنا تتجلى العبقرية العسكرية للقائد (سعد بن أبى وقاص) فقد اختار موقعا ليس عميقا .. ثم جهز كتيبتين على رأس كل منهما قائد شجاع وكلفهما بعبور النهر فى البداية لتأمين عبور باقى قوات الجيش .. ثم كان العبور الكبير ..

انطلقت صيحة (ابن أبى وقاص) .. حسبنا الله ونعم الوكيل ، وقفز بجواده إلى ميه (دجلة) فتبعه جنوده يهللون ويكبرون حتى اكتمل عبورهم ووصلوا إلى (نهاوند) .. كان أمرا حتميا أن يتولى سعد بن أبى وقاص إمارة العراق .. وهناك أدار دفعة التعمير وأرسى قواعد الدين الحنيف مؤسسا مجتمعا إسلاميا كامل الأركان اجتماعيا ، واقتصاديا ، وعسكريا ..

عاد سعد بن أبى وقاص إلى المدينة ، وفضل البقاء هناك إلى جانب الخليفة عمر .. وغيره من صحابة رسول الله يعطى المشورة إذا طُلب منه ذلك فى أمور السياسة والحكم ..

إلا أن (سعدا) لم يشارك فيما ظهر على سطح الحياة
الإسلامية من خلافاتٍ ونزاعات وصل بعضها إلى حدّ
القتال (كما فى الفتنة الكبرى بين الإمام (على) ومعاوية
ابن أبى سفيان) ..

ولما حضره الموتُ وكان جاوز الثمانين استقبله بروح
الرجل القوى الإيمان ، الشديد التقوى الواثق من رحمة
ربه ، وكيف لا وهو صاحب بشارة رسول الله بالجنة ؟...
ولما شعر بدنو أجله طلب من أهله أن يأتوا إليه بثوب
قديم بل كان يحفظه فى مكان آمن وأمر أن يكفنوه به ..
وقال :

(لقد لقيت المشركين فيه يوم (بدر) .. ولقد ادخرته لهذا
اليوم) ..

ها هو ذا الرجل يختار ثوب عرسه الذى يريد أن يُزفَّ به
إلى جنات النعيم ..

ثوب الجهاد فى سبيل الله .. ثوب الشرف الذى مزقته

الرماح .. وهتكته السيوف ..

هذا هو الثوب الذي اختاره (سعد) كي يلتقى فيه ربه ..
شهادة من الدنيا تزكيه فى الآخرة .. وهو الغنى عن هذه
الشهادة ..

فهو القائل : (إن الله لا يعذبنى أبداً .. إنى من أهل
الجنة) .

بكى المسلمون (سعداً) كما لم يبكوا أحداً منذ ودّعوا
رسولَ الله ..

فقد كان سعدٌ هو آخر من بقى من المهاجرين .. وبوفاته
طوى التاريخُ صفحةً مضيئةً من الحياة ..
صفحةً حروفها تقوى الله ، وكلماتها الإيمان الحق ،
وسطورها الجهاد فى سبيل الله .